عبدالله حامد الامين

الرسم البياني للرواية السودانية

ليس عمر الرواية السودانية بطويل ، اذا ما قورن بالرواية العربية في الشام ومصر . فقد ظل الشعر صاحب الصولة وحده حتى بداية الثلاثينات من هذا القرن ،حين انتج اللقاح بين الثقافة العربية التقليدية ، والثقافة الاوروبية الحديثة نتاجه في الادب السوداني ... وكان ذلك على ايدي الرواد الاول من كتاب مجلتي النهضة والفجر (١٩٣١ – ١٩٣٣) .

في هذه الفترة انتشرت موجة من الادب الرومانسي ، وظهرت لاول مرة انماط اخرى تحاول ان تنافس الشعر من غير ان يكون لها القدرة على ذلك .. وكانت الموجة الرومانسية ارهاصا لنشاة اول طبقة برجوازية حديثة تصبو في داخلها الى تغيير المجتمع بما يتناسب وروح العصر ، وتطمع ان تكون هي صاحبة السلطة في هذا التغيير على اطلال المجتمع الاقطاعي وشبه الاقطاعي السائد ، وقد رفدت هذه الحركة بالفعل النزعات السياسية البرجوازية بالتأييد ، وخلقت قياداتها التي تعاونت فيما بعد مع الطائفية ، املا في ان تتمكن من السلطة من خلال هذا التعاون وفي ظلاله .. وتجمع كل ذلك في الحركة الفكرية والسياسية التي سادت مؤتمر الخريجين العام ، والى ما بعد قيام الاحزاب ، وحزبا الامة والاشقاء في مقدمتها . وقد برزت معالم هذا الاتجاه الرومانسي البرجوازي في اول محاولةلكتابة عمل قصصي طويل وهو كتاب « موت دنيا » الذي اشترك في اعداده كاتبان من جيل الرواد ، هما محمد احمد محجوب ، وعبدالحليممحمد.

و « موت دنيا » الذي نشر في منتصف الاربعينات وكتب بلغة المذكرات – مع ظهور الخط الفاصل بين اسلوب الكاتبين – يعكس الى ابعد مدى فترة البراءة الاولى للبرجوازية الناشئة حينذاك ،وبساطة احلامها وضحالة تجاربها .

ولم يكن في « موت دنيا » خط واحد ، او خيط دقيق يربط العمل القصصي برباط فني ، او يجعل منه وحدة عضوية .. يكفي ان يجلس كل واحد من الكاتبين ليسرد باسلوبه ، او باسلوب مستعار ما يتذكر من عهد الطفولة والصبا الى عهد الطلب في كلية غردون التذكارية ، ناثرا في اثناء ذلك بعض صبوات الشباب الباكر ، واحلامه العذراء ، وبعض المصاعب والعقبات التي خلفت الالام والحسرات .. وبعض الوقفات التي دخلت في حسبانهما التاريخ.

ولم يكن هذا هو العمل الوحيد للكاتبين ، فقد كان للمحجوب قبل ذلك دوره كناقد في بداية الحركة الادبية الحديثة ، وكان عبد الحليم من اول رواد القصة القصيرة في مجلة النهضة . على ان عملهما القصصي الكبير رغم تواضعه الذي ذكرنا ، يعتبره بعض النقاد وثيقة اجتماعية تؤرخ لنشوء البرجوازية الجديدة في السودان . وتاكيدا لهذا المفهوم من جانب النقاد الاشتراكيين الذين ظهروا بعد الحرب العالمية،كتبعبدالرحمن الوسيلة مذكرات معارضة « لموت دنيا » اسماها « حياة دنيا » ونشرها في سلسلة بجريدة « الميدان » اليسارية ، وكانت مذكراته سردا تاريخيا لنضال المثقفين اليساريين، وكفاحهم من اجل حياة جديدة يحكمها الفكر البروليتاري ، ولم تكن « حياة دنيا » عملا أدبيا بقدر ما كانت معارضة اجتماعية وسياسية للفكر البرجوازي المتمثل في« موت دنيا » .

ولا بد من القول هنا ، ان المحجوب وعبدالحليم لم يكونا نجمي الادب القصصي في زمانهما . فقد سبقهما ، او عاصرهما ادباء اخرون مارسوا كتابة القصة القصيرة وحدها .. وكان اقرب هؤلاء الى روح العمل القصصي الحديث الكاتب الناقد معاوية محمد نور.. لقد رفض معاوية كلية غردون ، وذهب الى القاهرة ، ثم بيروت في اوائل الثلاثينات وتخرج من الجامعة الامريكية ، واطلع اطلاعا واسعا على الاداب الاوروبية الحديثة ، وكتب مبكرا في المجلات والجرائد المصرية عن الرواية والقصة والادب الحديث بصفة عامة ، وكتب القصة القصيرة باسلوب اكثر واقعية وفنية من رصفائه فيالسودان، وتبدو في قصصه بطولها الزماني ، وشخوصها الكثيرين ملامح الرواية التي لم تكتمل او التي ضغطت ضغطا . اما واقعيته فتبدو في تقصي احوال الكادحين ورسم الشخصيات على طريقة جوركي.. وقد مات معاوية في الثلاثين من عمره ، ولميخلف الا مجموعة من المقالات في كل موضوعات الادب والثقافة ، والا مجموعة محدودة من القصص القصيرة ، وربما جرب كتابة الرواية ، ولم يتسع المجال لنشرها فضاعت فيما ضاع من انتاجه ، خاصة وانه قضى السنوات الاخيرة من عمره القصير في حالة فقدان للذاكرة .

بالاضافة الى معاوية ، ومحجوب ، وعبدالحليم ، حاول مثقف اخر هو محمد عثمان هاشم كتابة القصة الطويلةباسلوب عربي تقليدي واتبع طريق الرواة الاقدمين في اعداد عمله الذي استمد مادته من قصة شعبية سودانية هي قصة « تاجوج والمحلق » والتي تشابه الى حد كبير قصة مجنون ليلى التي صاغها احمد شوقي في رواية شعرية ، ولقد صنع هاشم باسلوب نثري تقليدي ما صنع شوقي باسلوب شعري مع الفارق الادبي بينهما . ولقد كان متاثرا من جانب اخر بمدرسة جورجي زيدان التي اسست القصة التاريخية

العربيـة الحديثـة .

وشهد عام ١٩٥٥ مولد أول عمل قصصي يقترب من شكل الرواية الحديثة وكان ذلك على يـد الدكتور بدوي عبدالقادر خليل ،حينأصدر قصته الطويلة « هائم على الارض » . وكانت القصة لونـا من الوان الترجمة الذاتية ، ولكن باسلوب غير مباشر ، فقـد اعد الكاتبفصولها بشكل مذكرات عن حياة طالب يتلقى العلم في جامعات مصر، وقد افاض الكاتب في وصف الجوانب العاطفية من حياة بطله ، وسرد غرامياته المتعددة ولم يتطرق الى الجانب الاخر من البيئة السودانية . او التي خرج منهـا بطل قصته . ولعله اهمل ذلك عن عمد ، حتى لا يتعرف القارىء الى هويـة البطل .. يكفي انهـا قصة عربية ، او مصريـة بالتعبير الادق ومما يؤكـد ذلك انه جعل الحوار يدور ـ على قلته ـ بيـن الفصحى واللهجة المصرية .

على انه من الزاويـة التاريخية والفنية على السواء ، لا بد من اعتبار « هائم على الارض » اول محاولة روائية أمكـن نشرها لكاتـب سوداني ، وتختلف عـن سابقاتها ، بان الحدث القصصي فيها والموضوع واحد ، وكذلك البطل ، وانهـا حاولت النهج الروائي الحديث فـي الشكل والاسلوب ، فخرجت كلون من الوان المذكرات والاعترافات التي صيغت بقالب القصة . وتختلف في هذا كثيرا عن « موت دنيا » التي حملت ذكريـات كاتبين باسلوب الريبورتاج التقليدي ، وعن « تاجوج » التي كتبت على طريقة الروايـة التاريخية بلغة عتيقة .

وفي نفس العام ١٩٥٥ الذي صدر فيه « هائم على الارض » بدا في بعض الصحف المحلية نشر اول رواية سودانية تقترب من الاتجـاه الواقعي الاشتراكي في الادب ، وتعبر عـنه الى حد ، وهي الروايـة التي اصدرها فيمـا بعـد كاتبهـا خليـل عبدالله الحاج تحت اسـم « انهم بشر » وعنوان الروايـة دال على الزاوية السياسية اوالانسانية التي يقف الكاتب على ارضهـا ، والتي تتضح اكثر واكثر اذا ما دلفنا الى داخل عمله القصصي . فالرواية تجسيد لآلام فئة بائسة منالناس، تعيش في مكـان واحد على هامش الحياة في مدينة ام درمان ،ويعايش الفئـة تمثيل نسبي لفئتين اخريين ..فئة متوسطة الحال يمثلها (حسان) احد الموظفين المثقفيـن ذوي الاتجاه الاشتراكي المثالي ، وفئة ناميـةمن الاثريـاء الجدد الذيـن استثروا منذ اواخـر عهد الاستعمار ،ويمثلهم (المتعارض) صاحب المقاولات ، ورجل الاعمال الكبير ، وموقف الكاتب هـو الانتصار للفئـة البائسة المغلوبة من خلال (حسان) ممثل الثقافة الاشتراكية المثالية ، بل وممثل البرجوازية الصغيرة المقهورة ، وقـد غلب هو نفسه على امره في مسالة زواجه من حبيبته التي اختطفهـا بامكانياته الثري (المتعارض) . ولكن الحب ينتصر في النهاية لتعـود اليه حبيبته ، ويذهب افراد الفئة البائسـة بعضهم الـى القبور ، واكثرهم يتفرقون خارج الزقاق الذي طردوا من مأواهم فيه حتى يتسع المكـان لمبان جديدة ، ولفئات جديدة .

والرواية في مضمونها تقوم على الصراع بين الطبقات ، ولكنها اقرب الى الفكر الاشتراكي المثالي منهـا الى الفكر المادي . فالبطل ـ وفكره عماد فلسفة الرواية ـ برجوازي صغير ، وهـو رغم نضالـه الاصلاحي وسخطه على الاغنياء ، وعطفه على البؤساء فان همه فيالنهاية المطاف ان يعيش في هدوء مع حبيبته في حديقة منزلهمـا (ليستروح من هجير الكفاح كلمـا لفحته شمسه) هذا المنزل الذي يقوم علـى انقاض (حوش عم مرجان) المأوى السابق للشحاذيـن والعميـان ، وهم الذيـن لـم يعـد لهم وجـود في الحي بسبب التطلعات الجديدة للفئـات النامية من رأسمالية وبرجوازية .

والقصة تعكس بهذا المستوى صراعا حقيقيا ظل يجري ويشتد منذ ما قبل الاستقلال بفترة قصيرة والى اليوم ، ولكن تناول الكاتبللصراع من خلال الواقعية الرومانسية ، والفكر الاصلاحي الاخلاقي ،مع التركيز على الجانب العاطفي من حياة البطل اضعف من مستوى هذا الصراع واكسبه شيئا من سمات القدرية الجبرية . اما مـن حيث الشكـل ، وربمـا المضمون ـ فانها تقترب من « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، وتتأثر بها . وكان الكاتب من الشجاعة بحيث ذكر ذلك في مقدمته : « انهـا قصة زقاق سوداني ، كمـا ان زقاق المدق ـ مثلا ـ قصـة زقـاق مصري » .

ولعل الراي الذي اثبته مختار عجوبة في كتابه « القصة الحديثة في السودان » والذي اقتطفه من مقالـة للكاتب القصصي السوداني الطيب زروق يكشف عـن اثر الكتاب المصريين ، والكتاب الروس فـي القصة السودانية ، فهو يقول : « ... وظهرت الافكار الاشتراكية تحمل معهـا الى بلادنا معالم الادب الاشتراكي ، فقرأ ادباؤنا الكثيـر ممـا كتبـه رواد الواقعيـة ، أمثال جوركي وتورجنيف ، وتشيكـوف ـ والقصة المصرية الحديثة بمضمونهـا الانساني ونظرتها الواقعية للحياة قـد اثرت تأثيرا لا يستهان به في قصتنا السودانية ، فما كتبه نجيب محفوظ ، ويوسف أدريس ، وعبـدالرحمـن الشرقاوي ، ويوسف الشاروني ، ولطفي الخولي ، وغيرهم ، كان بمثابة المحرك لولد قصة سودانيـة تتخذ من الواقعيـة اسلوبا في معالجـة مشاكـل الحياة والمجتمـع » .

وبعد الاستقلال (١٩٥٦) وبتأثير الصراع المشتعل في السودان وبأثر من الصراع الفكري في مصر بدأ الاتجاه الواقعي ، والواقعـي الاشتراكي يتبلور في الانتاج الروائي والقصصي الجديد،وكانتالمحاولة الاولى رواية « بداية الربيع » لابي بكر خالد ، والتي تناول فياحداثها الصراع السياسي الذي دار قبل الاستقلال بقليل بين القوى التقدمية، والقوى الرجعية حول قضايا الكفاح ضد الاستعمار ، ومن اجل ارساء دعائم مجتمع جديد .. واتخذ ابو بكر مدارا لروايته حركات الطلاب ، ومجتمعات الشباب في تلك الفترة المليئة بالحيوية والنشاط .. على ان صوت الصراع السياسيوالفكري بشعاراته ولافتاته طغى فيالرواية، فمحا كثيرا من الملامح الاجتماعية والذاتية للشخوص . كمـا غطـى الانحياز للبطل التقدمي ـ بشكل تقريري ـ على جانب كبير من عفويـة الحركـة وصدق التناول .

غير ان الرواية بالرغم من ذلك كله تعطي مؤشر تحول واضح فـي طريق الالتزام ، وتعكس طعم الواقعية في تلك الفترة التي علا فيهاصوت المعارك السياسية على كل شيء . والرواية فوق ذلك تؤرخ للمجتمع من زاويـة معينة ، وبمفهوم سياسي محـدد .

ويربط مختار عجوبه في كتابه عن القصة الحديثة فـي السودان بين شخصيات « بداية الربيع » وابطال روايـة نجيب محفوظ « القاهرة الجديدة » كما يربط بيـن التيارات المتصارعة فيالروايتين، ويقول : « ففي بدايـة الربيع نجـد النماذج الثلاثة التي كانت تمثـل التيارات الفكريـة المتصارعـة في المجتمع السوداني هي صورة مقابلـة للتيارات المتصارعـة في مصر عند نجيب محفوظ ، فنجد (صديق) يمثل الاخوان المسلمين ، و(محمد) كـان شيوعيا و (سعـد) كـان لا منتميا ، وهم شخصيـات مأمون رضوان ، وعلي طه ، ومحجوبعبد الدائـم عند نجيب محفوظ » .

ومع وجاهة هذا الراي ، فان منالمؤكـد ان الصراع الذي دار في « بداية الربيع » صراع سوداني ، ولعل التشابه بيـن الفترتيـن السياسيتين في مصر والسودان ، اللتيـن يعبر عنهمـا الكاتبان هـو الذي اوحى الى مختار عجوبة بهذا الراي رغم ما يكـون مـن تاثيـر نجيب محفوظ على كتابات ابي بكـر خالـد في المرحلة الاولى من انتاجه .. والفرق بيـن « القاهرة الجديدة » و« بداية الربيع » ان الاولـى اكثر واقعية ، والثانيـة اكثر اشتراكيـة وان نجيب محفوظ يلتـزم التعبيـر من الزاويـة الاجتماعية ، ويعطي ابطاله شخصياتهم الحقيقية من خلال الصراع الاجتماعي ، في حيـن كانت روايـة ابي بكر خالد فـي المقام الاول وثيقـة سياسيـة . والروايـة بعد صغيرة الحجم ولا

تزيد الا قليلا عن مائة صفحة من القطع الصغير .

وقد واصل ابو بكر خالد الاتجاه الى السياسة في روايته الثانية والاخيرة ، والتي اصدرها في (١٩٦٧) بعنوان « النبع المر » وفيها يتناول احداث فترة الحكم العسكري ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ حتى فجر انبثاقة ثورة اكتوبر وابطال القصة يرتبطون مع ابطال « بداية الربيع » ولكنهم هنا ليسوا طلابا صغارا او من في مستواهم ، فقد نما الصراع واتسع الميدان ، فالابطال من طبقة الموظفين والمثقفين ، ومن افراد الطبقات الاجتماعية المتوسطة و« النبع المر » تطوير للناحية الاجتماعية والسياسية في عمل الكاتب ، لان رسم الشخصيات هنا اصبح اكثر دقة ، كما ان النضال السياسي يجري من خلال معترك اجتماعي واضح، ولكن الكاتب ظلم بطلة القصة ، وهي فتاة من الجيل الحديث مناضلة ـ حين وضعها في قالب فكري اكثر مما هو انساني فاصبحت اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة.

والشكل العام في « النبع المر » لم يختلف كثيرا في الناحية الفنية عنه في « بداية الربيع » . كل ما في الامر ان الكاتب عمد في روايته الاولى الى طريقة الفصول المعتادة والتي تتدرج من خلالها الاحداث تدرجا زمنيا تقليديا ، ولجا في الرواية الثانية الى طريقة كانت اكثر سهولة حين قسم العمل الروائي كله الى فصلين رئيسيين هما عبارة عن خطابين متبادلين بين بطل القصة وبطلتها ، فجاء الشكل ايضا تقليديا ولم يتطور .

وابو بكر خالد رغم ذلك يتميز عن سابقيه بانه اختط لنفسه طريقا ملتزما ، وانه كتب اكثر من رواية خدمة للغرض الذي خطط له بزاوية فكرية وسياسية ، وانه قبل ذلك خرج وزميله خليل عبدالله الحاج وهو السابق عن مرحلة الحكاية القديمة واسلوب الذكريات والسير الذاتية التقليدية ، فهو وخليل عبدالله الحاج بهذا المستوى رائدا الرواية السودانية في مرحلتها الاولى .

وقد جاء بعد كتابتهما الاولى كاتب اخر هو فؤاد احمد عبد العظيم صاحب « بكاء على التابوت » ولكنه في هذه الرواية كان اقرب شكلا ومضمونا الى روح الكاتب المصري احسان عبدالقدوس في رواياته الاولى ، وقد ركز همه على قطاع صغير من المجتمع مشغول بعوالم اخرى غير عوالم عامة الناس ، وبدا يزاوج زواجا مصنوعا بين شخصيات مختلفة الانماط والاطوار في جو رومانسي عارم مشحون بلذائذ الحب وبكائياته معا .

وكاتبة اخرى ظهرت في نفس الفترة ـ اوائل الخمسينات ـ وان لم تنشر روايتها الوحيدة ، الا هذا العام وبعد وفاتها وهي السيدة « ملك الدار محمد » والرواية التي تحمل اسم « الفراغ العريض » تتجه الى لون من الترجمة الذاتية باسلوب غير مباشر ، وتتناول قطاعا عريضا من المجتمع السوداني ، اول الاربعينات ، حين خرجت المراة السودانية للعمل اول مرة . وفي الرواية محاولة لرصد وابراز التناقضات التي عاشها المجتمع ، وعاشتها المراة بوجه خاص في تلك الفترة ، كما انها تتناول التناقض بين حياة الريف من حيث خرجت البطلة ، وحياة المدينة حيث استقر بها المقام من اجل العلم والعمل .

ورواية « الفراغ العريض » في هيكلها العام واسلوبها القصصي لا تخرج عن اتجاه الكتاب العرب التقليديين ، وعلى راسهم المدرسة التيمورية، ونلاحظ ذلك في عنايتها بالاسلوب البياني العربي ، وبالحوار الفصيح وشبه الفصيح ، وبالاحتشام في تناول الجوانب العاطفية ، وفي تصوير الشخصيات . ومن هنا كانت ملك الدار محمد في « الفراغ » على النقيض تماما من فؤاد احمد عبدالعظيم في « بكاء على التابوت » مع انهما ـ مثلهما مثل الاخرين ـ من خريجي مدرسة واحدة هي على التعميم المدرسة المصرية التقليدية بدءا من هيكل صاحب زينب ، ومرورا بتيمور ، والعقاد ، وطه حسين ، والمنجب محفوظ والسباعي ، والشرقاوي ، واحسان ، وعبدالحليم عبدالله.

على انه لا بد من القول بان التيار الواقعي العام والواقعي الاشتراكي، المتمثل في الادب الروسي الواقعي وبعض كتابات الواقعيين المصريين وجدا ارضا بكرا في الرواية السودانية على يد خليل عبدالله الحاج ، وابي بكر خالد ، كما وجدا مجالا اوسع في التاثير على القصة القصيرة وكتابها الاوائل ، ومنهم عثمان علي نور ، وابو بكي خالد ، والطيب زروق ، والزبير علي ، وخوجلي شكرالله ..

وقد مرت الرواية السودانية رغم حداثة عهدها بفترة ركود منذ ظهور الانتاج الاول في منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات حين ظهر انتاج الطيب صالح الروائي ، ولا نستطيع ان نرد فترة الركود هذه الا لصعوبات النشر نفسها في السودان وفي خارجه ، وان عملية النشر نفسها اذا وجدت فهي غير مجزية ماديا للكاتب ، وغير ميسرة من ناحيتي التوزيع والقيمة الشرائية للقارىء . وقد كسر الطيب صالح طوق الرواية السودانية ، وفتح المجال العربي والعالمي امامها واسعا بما تيسر له من صلات بحكم موقع عمله ، وبما اتيح له من امكانيات ادبية عالية .

فالطيب صالح في « عرس الزين » ، وفي « موسم الهجرة الى الشمال » وكلاهما نشر لاول مرة بمجلة (حوار) بين عامي ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦ يقدم نموذجا جديدا للرواية السودانية ، وللروائي ايضا . فهو من حيث التعبير والاسلوب جمع بين العبارة العربية القديمة والحديثة ، فكسب ذخيرة لغوية تسعفه كثيرا ، وهو من حيث الشكل والتقنية قد استفاد من القصة الاوربية الحديثة ، فحطم النمط العربي الذي عاشه الكتاب من قبله ، وفتح باب التجديد ، وقدم فيه اجتهاده الخاص ..

وروايته « موسم الهجرة الى الشمال » نموذج للشكل الجديد في الرواية السودانية والعربية ، فقد تخلى فيها عن اسلوب السرد القديم وحطم البعد الزماني والمكاني بشكله الرتيب ، ليس لان القصة تجري احداثها في قطرين يختلفان زمانا ومكانا ، وانما لان فصول القصة تتداخل والابعاد النفسية للرواية ولبطل القصة، كما ان التشخيص لم يعد يعتمد على الرسم المباشر والشكل الفردي ، بل يقوم على اسلوب التعرية والتجريد للانماط من خلال مجريات الاحداث والمواقف والحوار .

اما روايته الاولى « عرس الزين » فقد استفادت من الاسلوب المسرحي في مقدماتها ، كما ان البطل « الزين » وهو عبيط محظوظ يشبه شكل « المهرج » في بعض الاعمال الدرامية فهو الرابطة بين جميع الاحداث لان من حقه ان يكون في كل مكان وزمان ، وهو (سارية) بارزة وفعالة في محور الصراع الدرامي ، بل هو (بوصلة) هذا الصراع ، ومقياس حرارته .. وهذا ايضا نمط اوروبي عريق .. على ان الكاتب افلح في ان يجعل منه محورا محليا لقصة سودانية صحيحة .. وفي « عرس الزين » تماسك وتناسق يقرب الى السرد التقليدي ، ولكن تحريك الجماميع المتمثلة في المعسكرات الاجتماعية ، وفي احتفالات القرية ، وفي زواج الزين نفسه غطى على شكل هذا السرد ورتابته ، ويتدفق الكاتب في هذه الرواية كما في « موسم الهجرة الى الشمال » في رصد المترادفات اللغوية ، والسمات الاخرى في وصفه للمناسبات والمواقف ، والحركات بصورة مبالغ فيها احيانا ، ولكنها تؤكد الذخيرة العلمية والادبية ، عربية واوروبية ومحلية . وفي الجانب المحلي فان الكاتب قادر باسلوب تحريك الجماميع من الناس والحيوانات ، والمعدات ، على تقديم مسح اجتماعي ، وجغرافي ، وتاريخي لكثير من اوجه الحياة السودانية في الريف محدودا بفترة زمانية ليست هي الفترة الحديثة بحال بل هي ليست الا الرؤية البعيدة لكاتب مغترب ، وغرام الطيب صالح بالجماميع وبقدراتها التمثيلية للمجتمع جعله يكررها في اعماله القصصية الاخرى كرواية « بندر شاه » وهو يكرر كثيرا من الشخوص باسمه ، ولكن الفترات الزمانية التي يتناولها تختلف ، وغرامه شديد ايضا بتوظيف البطل او المحور في كل رواية من الشخصيات صاحبة الاطوار الشاذة، والذين يكتنفهم سر دفين ، وهو في هذا يحيي اثر السحر في حياة

المجتمع وسلوك الافراد ، ويتخذ الخط الصوفي الشعبي المليء بالاساطير والشعوذات ، والقائم على سيطرة القوى الخفية والغيبيات . وقد تمركز ذلك عند الطيب صالح في تجريد ابطاله الذين ذكرنا من الاختيار، وفي تحريكهم وتحريك العالم من حولهم بغير تبرير ، والى مصير مبهم .. نجد ذلك واضحا في شخصية الزين وفي مصطفى سعيد ، وفي بندر شاه ، يتماثلون داخليا بين اصابع الطيب رغم اختلاف شخصياتهم الخارجية .

والطيب صالح لا يمثل بذلك اي تيار في الواقعية بمعناها الملتزم، ولا يطور الواقعية السودانية او العربية ، ليس لخطه الذي ذكرنا وحده ، بل لانه يبتعد داخل رواياته عن اي خط فكري ملتزم حقائق الصراع الاجتماعي والتناقضات التي تحكم مسيرة المجتمع ، حتى المصكرات الاجتماعية التي اسماها هو كذلك ، وجاء بها في عرس الزين ، وحركها بشكل او باخر في رواياته الاخرى ، لا تمثل في رصيده سوى علامات ، ونتوءات ثابتة في الحياة الاجتماعية ، والصراع الذي يدور داخلها ليس سوى فقاقيع سرعان ما تذوب ما دام البطل بسره وسحره يلقي بطاقية الاخفاء فوق رأس المتناقضات .

كل ذلك لا يعني التقليل من قيمة الطيب صالح كفنان اصيل وصل بالقصة السودانية والعربية الى مستوى عال من التقنية اثبت فيه مكانته الخاصة ، وتجربته المتميزة .

واخيرا وليس اخرا ، يجيء في الميدان ابراهيم اسحاق ، وهو كاتب من جيل الشباب الجديد ، يعطي لونا وطعما جديدين في شكل الرواية ، ومضمونها ، وقد اظهرت روايته الاولى « حدث في القرية » والتي طبعت في ١٩٦٩ ، قدرة الكاتب على الاختيار والتناول ، بعيدا عن السبيل المطروقة من قبل .. فروايته هي الاولى التي تدور احداثها كلها في منطقة نائية مجهولة من اعماق الريف غرب السودان ، وهي الاولى التي لا نجد فيها بطلا ، او ابطالا من البشر تدور حولهم الاحداث ، بل يظهر صوت الرواية (مشاهدا او شاهدا) من حين لاخر ، لينقلنا عبر الاحداث التي تتحرك في داخلها القرية باكملها: اناسها ، وحيواناتها .. وهنا على العكس من « عرس الزين » تتحرك المجاميع حركة واحدة كانها مقادة بعصا ساحر او كانها فرقة موسيقية يسيطر عليها قائد مجهول .

والرواية وهي متوسطة الحجم عدد صفحاتها لا يقل عن مائتي صفحة تجري كل احداثها من صباح يوم الى مغربه في قرية من مناطق العطش في صحاري غرب السودان . فالقرية تنتظر الامطار والسيول في موسم الخريف لتدب فيها الحياة بعد الموات ، ولتنطلق فيها الحركة بعد الجمود ، وياتي السيل ذات صباح يفيض في الوادي، ويملؤه ، ويهرع الناس والاطفال، والحيوانات الى الوادي ليفاجئوا على غير العادة بان حيوانا مجهولا قد اتى مع السيل وضرب احد الاطفال فقتله ، وينتشر الخبر في القرية وتنتشر القرية كلها على حوافي الوادي تفتش عن السر الرهيب وتقضي النهار باكمله ودوابها عطشى، والماء دون اعينها ، وتحدث في خلال ذلك احداث واحداث ، وتفقد القرية ارواحا اخرى ، ويأتي المغيب ليسدل الستار على اليوم الرهيب ، وليضع نهاية غير واضحة المعالم لذلك الحيوان الذي لا ندري عنه شيئا سوى انه روع امن القرية ، ونغص عليها فرحتها باليوم المنتظر !

والرواية فيها شحنة من الرمز واضحة ، ولكنا حين نتابع عمل الكاتب لا نكاد نحس بانه يهدف الى رمز معين ، فهو تستغرقه التفاصيل الدقيقة في وصف الطبيعة والاحداث بشكل واقعي مثير ، وهو لا يقدم المجاميع بطريقة اجمالية ، بل لا بد من عرض الافراد ، وتسليط ضوء النهار عليهم دون تركيز على اوصافهم الشخصية التقليدية ، لان الناس في قرية نائية محكومة باسرار كونية لا قيمة لتكويناتهم الشخصية الا بمقدار نصيبهم من المحنة او المصير ، كلاهما مجهول السبب ، وغير مبرر .

ورواية الكاتب الاخرى ، والتي صدرت في العام الماضي باسم « اعمال الليل والبلدة » لا تخرج في شكلها الفني العام عن « احداث القرية » . وحتى في موضوعها العام تحمل نفس السمة التي طبع بها ابراهيم اسحاق روايته الاولى ، وهي الاغراق في وصف البيئة الريفية ، البعيدة عن روح المدنية ، وتحريك هذه البيئة بحدث عارض يكشف عن براءتها وضعفها امام تحديات الطبيعة والاحداث الغامضة. كما يكشف عن تضامنها العشائري ، وذوبان الفرد بين المجموعة في مجتمع لاطبقي ، شغله الشاغل هو الصراع مع الطبيعة والقدر ، وما شابه ذلك . وهنا يختلف ابراهيم اسحاق عن الطيب صالح، لان الطيب يعكس صراعا لفئات اجتماعية نامية ، ولكنه يصر على ان يجمد هذا الصراع ، ويجعله قدرا نافذا ، في حين يحكي ابراهيم اسحاق عن درجة مختلفة جدا من المجتمع ، وعن عنصر اخر من الصراع يكشف فيه الكاتب عن مأساة الانسان الاولى ، وازمته الازلية .

وقد اغرق ابراهيم اسحاق في روايتيه اغراقا شديدا في البيئة المحلية ، وخلط بين الواقعية والحقيقة ، فجعل من لغة الحوار شيئا يصعب فهمه حتى على بقية السودانيين من غير جهة غرب السودان ، كما انه افاض واطنب في وصف الطبيعة ، والمسميات الاجتماعية ، والمادية بنفس اللغة على وجه التقريب ، ولم يكتف ، كما فعل الطيب صالح بجعل الحوار وحده عاميا ، وتركيب التعبير على مستوى من النصاعة الكلاسيكية . لقد كان ابراهيم اسحاق يغترف من التربة المحلية دون ان يعني نفسه بغربلة كثيرة ، ويبدو ان ثقافته القربية والتي تطغى على قراءاته العربية قد حدت من انطلاقة التعبير عنده ، الى مجال ارحب ، والطريق ما يزال طويلا امام هذا الرائد الشاب .

شيء اخير نقوله عن الرواية السودانية اجمالا ، فقد تدرجت هذه الرواية من التقليد المباشر للادب المصري او محاكاته كما في « هائم على الارض » ، و« بكاء على التابوت » حتى تحررت بصورة نهائية، ليكون لها طعمها الخاص ، ونكهتها المميزة عند الطيب صالح ، ثم ابراهيم اسحاق ، وقد سبقت ذلك محاولات للاستفادة من الشكل ، او القوالب الجاهزة دون المضمون الذي اصبح سودانيا واقعيا ، كما في اعمال ابي بكر خالد ، وخليل عبدالله الحاج . وقد تدرج الحوار في القصة السودانية بنفس المستوى ، فاذا كانت « هائم على الارض » قد جاءت بحوار شبه مصري ، فقد حاولت « بداية الربيع » و« انهم بشر » الحوار السوداني العامي القريب من اللهجة الفصحى بدرجة . واعتذر خليل عبدالله الحاج في مقدمة روايته للقارىء بسبب تقديمه الحوار بالعامية ، بعد ان كان قد اعده من قبل بالفصحى .

لقد كان خليل ، وابو بكر والاخرون فيما قبل الطيب صالح، وابراهيم اسحاق يحاولون التقرب الى القارىء العربي باي ثمن ، وكان همهم الاول هو الوصول الى مساحة جغرافية اوسع ، والغريب انهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه الطيب صالح الذي وجد حظا طيبا رغم الاغراق في عاميته بعرس الزين ، ثم في بعض نواحي الحوار في موسم الهجرة ، وبندر شاه .

شيء اخر وهو ان الانتاج الروائي في السودان ظل محدودا وبطيئا بسبب الصعوبات التي تواجه النشر ، والتي يتضح اثرها المعوق في ان اكثر الروايات قد طبعت خارج البلاد (في بيروت او القاهرة) وان عملية التوزيع تبعا لذلك كانت غير منتظمة ، وكانت محدودة في الداخل والخارج على السواء .

وقد حالت صعوبات النشر دون خروج اكثر الاعمال الادبية والروائية في موعدها . فكثير من الروايات التي ظهرت تم نشرها بعد الفراغ من اعدادها بسنوات قد تطول وقد تقصر ، وهذا ما يجعل التسلسل الزمني للنشر غير متوافق دائما مع واقع الاعمال من الناحية التاريخية. ولقد حاولت جهدي في هذا التقديم ان اضع رسما بيانيا اقرب الى الحقيقة بابعادها التاريخية والفنية ، والتي تحتاج الى مزيد من الدراسة والتمحص في هذا الباب البكر من ابواب الادب السوداني الحديث .